الأضداد الفصيحة في العامية الجزائرية

أ.د.عبد الجليل
مرتاض
تلمسان

لمن أقوى الدواعي التي تدفع الباحث في اللهجات العربية الفصيحة إلى التأمل المتّئد الطويل، تلك العروة الوثقى التي تصل كلمات كثيرة في عامية بلده، إن كان الباحث عربيا يمارس فصحاه مِراسًا مُوَاظبًا عليه، لأن العامية على اختلاف لهجاتها والتي أصبحت لا تزيد إلا تباينا وتشعبا بين كل حقبة وأخرى، حتى إنه لأضحى "عسيرا على الباحثين أن يَحْصُرُوها، إلا إذا تكاتفت الجهود في سائر أنحاء الوطن العربي مع تنسيق كامل ومتصل،..."[1]، ليست إلا تلك اللهجات العربية الفصيحة القديمة التي انتشرت في الأمصار العربية الإسلامية بانتشار الإسلام، ولعوامل ليس هنا مجال لذكرها لم يستطع المفتوحون من

الأجناس غير العربية اللسان أن يستوعبوا لهجات الفاتحين، وأقلّ ما يمكن أن يشار إليه، ولو من بعيد، أن الّذين سَمعوا ولُقِّنُوا هذه العربية أوَّل ما سمعوها ولُقِّنُوهَا من غير العرب صليبه، أنهم سمعوا كلامًا، ولُقِّنُوا أداءً، لا لغةً ولا كفاءة (مصطلح شومسكي) أو ملكة لسانية (مصطلح ابن خلدون)، غير أنّ هذه الأشتات الكلامية، والإيقاعية الأدائية ما لبثت أن تحوّلت إلى عامية تختلف اختلافًا سطحيًا لا جذريًا بين كل بلد عربي وأخر، وهذا الاختلاف لا صلة له بالفصحى الواحدة الموحَّدة أو الموحِّدة، بل نابع عن السماعات الشفهية وفق ما سمعته هذه الجماعة أو تلك، في هذا المكان أو ذاك قاصيًا كان أم دانيًا، دون أن ننسى مصدر الإرسال البريء في إرساله، لكن بأداء، ربما، غير منسجم تمامًا من مصادر الإرساليات الأخرى.

والألفاظ المتناثرة بين لهجات المغرب العربية كغيرها من لهجات العالم العربي كله قد عرفت شذوذًا في مستواها النحوي إلا قليلا لا يكاد يلاحظ إلا بصعوبة،

وانحرافا أو ائتكالا أو قلبا أو تقديم ما يجب تأخيره أو تأخير ما ينبغي تقديمه في مستواها الصوتي الخطير المؤثر والمستعد مع توالي الأزمنة وتعاقب الأجيال على تغيير أية لهجة، ولعل ذلك يرجع إلى تسامح الفصحى في تبسيط محصولها الصوتي والنحوي والصرفي، ولكن كل لهجة مع ذلك ظلت مرتبطة ارتباطا عضويا إلى حد ما رغم القدر الكالح في وجهها والمحن والإحن التي عرفتها في تاريخها المظلم الطويل، بأصحابها الفاتحين الأقحاح الّذين كانت الآثار الأدبية المختلفة قد بدأت منذ زمن موغل في العصر الجاهلي تعمل على رَأْبِ شتات لهجاتهم القبلية الفصيحة كلها في لغة قومية واحدة، هي لغة شعراء التوحيد اللغوي الّذين، كما يبدو من دواوينهم، لم يكونوا يعيرون اهتماما كبيراً للفوارق اللهجية القبلية، ثم كان القرآن الكريم والأحاديث والمؤلّفات الأدبية والعلمية،... فوحدت توحيدا يكاد يكون شاملا، وأصبحنا بعد العصر الإسلامي قلما نلحظ فوارق لهجية تأسرنا، ومنهم

من غدا بعد هذا العصر يعمل هذا اعتمادا -لا اعتقادا- لإيثار لغة قومه، كما نجد لدى الحسن بن هانئ الحكمي، وحبيب بن أوس، والحسن بن وهب الحارثي...[2].

وأمّا التفاوتات اللهجية الفصيحة في صدر الإسلام، فإنها كانت ترحل مع الراحلين، وتنزح بنُزوحهم، ولم تبق إلا أثرا من آثار اختلاف الفصحى. وأنا لا أريد أن أتناول في هذا الموضوع القصير هذا الاختلاف اللهجي أو صلة العامية بالفصحى الأم، وقد أُلِّفَتْ في هذا الحقل اللغوي الممتع الشاق رسائل وأطروحات، وما بلت صدى الظمآن التواق لمثل هذه الأبحاث، وإنما أريد أن أتحدث عن ظاهرة لغوية معينة بين عاميتنا وفصحانا، وهي الأضداد اللغوية الفصيحة في العامية الجزائرية.

لا أقصد بالأضداد في هذا المقام تضاد الألفاظ فيما بينها، أي نَقْض كل كلمة للأخرى، مثل: حي وميت، صحيح ومريض،... بل أقصد بهذا أضداد الكلمات في ذاتها وهي الكلمات التي تستخدم تارة في معنى،

ومرة في معنى آخر، دونما تغيير ولا تبديل قلب لأي صوت في بنية الكلمة، كاستخدام الشاعر حسان كلمة "مودي" بمعنى الهالك في بيته[3]:

لقدْ رَمَيْتُ بها شَنْعاءَ فاضحةً يَظَلُّ مِنها صحيحُ القَوْمِ كالمودِي

أَوْ كاصطناع رؤية الكلمةَ نَفْسَهَا بمعنى الجاد القوي[4]:

مُودُونَ يحمُون السبيلَ السَّابِلاَ

أو ككلمة "القرء" (بضم القاف وفتحها) التي تكون للحيض والطهر، أو كقولهم: عَسْعَسَ الليل: إذا أقبل، وعسعس: إذا ولَّى وأدبر،...وهلم جرا.

وتوالت المؤلفات في هذا المجال اللغوي الشائك التي لا تنم إلاّ عن مدى الجهود الكبيرة المدهشة التي كان علماؤنا اللغويون الّذين سبقوا عصرهم يبذلونها بكل إعجاب ويَنُوؤُونَ بها ابتكارًا وأهلية وكفاءة، ولم يكونوا أبدا عالة على علوم مستقاة أو مقتبسة

من غيرهم من الأمم المجاورة أو المفتوحة في هذا الحقل اللساني البكر.

وبعد حين على بدء الدراسات اللغوية، ظهرت كتب الأضداد المتتالية لقطرب (206هـ)،ـ وأبي عبيدة (210هـ)، والأصمعي (213هـ) والتوزي[5] وابن السكيت (246هـ)، وأبى حاتم السجستاني (255هـ) وأبي بكر محمد بن القاسم (328هـ)، وابن دَرَسْتَوَيْهِ (347هـ)، وابن الأنباري (577هـ)، وسعيد بن المبارك الدهان (569هـ)، وبعد هؤلاء جاء العلامة الصغاني (577-650هـ) في عصر بدأ الوهن يغزوه، فعمد إلى جمع "ما تفرق في الكتب المصنفة في الأضداد من عهد قطرب... إلى زمن... أبي جعفر المنصور"[6]، ثم اختصر تقي الدين عبد القادر التميمي البصري (1009هـ) كتاب الأضداد لابن الأنباري (أبي بكر محمد القاسم)، ثم رتب ملاّ حسن ولد تقي الدين أعمال أبيه المختضرة على الحروف[7]، ويبدو أن بعض هذه المصنفات القديمة وسواها مِمَّا لَم يُذْكَر هنا قد ضاع ذلك الضياع المألوف في تراثنا الفكري

والحضاري، ولعل المستقبل سيكشفها، كما كشف الماضي غيرها.

والغرض من مثل هذه الدراسات التي لم نرلها بعثا ولا خلقا منذ عصر الانحطاط في الدراسات اللغوية العربية الحديثة هو إثراء اللغة وترويضها والتحديق بها من قُرب قريب ومراقبة معانيها، وجعل اشتقاق واحد منها يؤدّي غرضين اثنين، إذا عرف أحدهما عُرفَ آخرهما تلقائيا، وأملنا كبير في أن يراجع التراث العربي لإصدار معجم جامع منفرد خاص بهذا الحقل اللغوي الّذي ذلل عقباته وعبد طرقاته علماؤنا الأولون منذ سنين خوال، وأن يتبنّاه كَتَبَتُنَا الأكاديميون، لأن إحدى مشاكل اللغة العربية المنقوصة من أطرافها منذ عصر النهضة وظهور أجناس أدبية جديدة، أن معظم من يتعاطاها كتّاب ومبدعون مستواهم اللغوي بخصائص اللغة العربية وأسرارها وقواعدها البعيدة يكاد يكون معدومًا، ما دامت هذه الأجناس الأدبية الفنية لا تضطرهم إلى ذلك، وما دام أن جلّ من يقبل على هذه الإبداعات أناس غير أكاديميين ولا ضليعين في اللغة العربية،

وإذا ما قدّر لمبدع أكاديمي أن يشاركهم بمخاض إبداعي، وهو عنه مُعرض، نُعتت لغته بشتَّى النعوت.

وليس هذا الحديث ومثله انتصارا للعامية أو دعوة إليها، بقدر ما هو تناول دراسي ولو من بعيد لهذه اللهجة كمظهر لغوي ليس غير، إذ مضى ذلك الزمن الّذي كانت توصف فيه هذه اللهجة أو تلك بالرداءة أو الرغبة عنها، وعلى هذا فالهدف من هذه المناوشة القصيرة القاصرة هو موازنة الجذور الحية أو الأصول الجوهرية بالفروع النابتة الزاحفة، خاصة وأن اللهجة العامية العربية في القطر الجزائري الشاسع قد قاومت زمنا قد يكون أطول من أي زمن في أي بلد عربي آخر أحدث وأقوى اللغات الغربية العالمية بكل مظاهرها الأدبية والعلمية، تعضدها الفصحى لغة القرآن والعلوم والآداب والخطاب جميعا، ولما كان الأمر كذلك فقد كان لها حق علينا أن تقام لها أبحاث ودراسات في أبواب مختلفة منها، حتى تُفْحِم كلَّ مَارٍّ وَلاَجٍّ وشاكّ في صلة هذه العامية بالفصحى الأم في

سائر محاصيلها الدلالية والصوتية والصرفية والنحوية، إلا ما ندر منها من بعض ألفاظ أمم أخرى، تلك الأمم غير العربية التي تعاقبت على استيطان أو استعمار هذا البلد منذ ما قبل التاريخ إلى نهاية ثورة التحرير الأخيرة.

ولست أدعي ما لا أملك، فأزعم بأني سأوفي هذا الموضوع حقه، ولكن فقط أرجو -إنْ لَم أَكُنْ مخطئا- أن أكون قد فتحت بابا جديدا للبحث في هذا الحقل اللغوي المزدوج، ولذلك سأكتفي بتناول بعض الكلمات نموذجًا على سائر الكلمات الأخرى الممكن حَصْرها في دراسة معجمية دلالية وفق ما يناسبها في كل عامية عربية على حدة، لأن الإحالة على ربط هذه الوحدات اللغوية بشواهد عربية قديمة لا يتجاوز حدود الاستئناس، وإلا فإنّ أحدًا منّا لا يستطيع أن يراقب ما يتعاط من دلالات تواصلية في محيط لغته الطبيعية إلا بتدوينها وتشريحها لسانيًا وعرضها على محاكٍ إجرائية في وقائعها اللسانية الحية.

1) - البَنة:

بفتح الباء في العامية والفصحى معا، وتعني في عاميتنا الرائحة الطيبة، إذْ يقال للقهوة بنة إذا كانت نكهتها طيّبة، وللبطيخ والطبخ ونحوهما بنة،... وقد يعنى بها أيضا في العامية الرائحة الكريهة، ولكن يجب أن توصف عادة بصفة منتنة دالة على مقدار خبث نكهتها أو رائحتها، كأن يقال مثلا، للبن الجرجير أو للبن الحامض بنة قبيحة، وتكون البنة في نعت الفواكه، والنبات والطعام والمشارب ونحوها ولا تتعداها فلا يقال مثلا: للضبع بنة كريهة بل يقال: رائحة كريهة.

أما البنة الفصحى فهي من الأضداد، إذ روى أبو عبيد القاسم (223هـ) في غريبه: "البنة الرائحة طيبة كانت أو منتنة"[8]، وخالفه علي بن حمزة البصري (375هـ) في أن تكون البنة طيبة مستشهدا بأحد أقوال الإمام علي للأشعث بن قيس، وقد خطب إليه -كرم الله وجهه- ابنته: "قم لعنك الله حائكا، فلكأني أجد منك بَنَّةَ الغَزْلِ"[9] ولأن العرب

تسمي البعر البنة، كما في قول الأسود بن يعفر[10]:

وَعِيدُ تُخْدِجُ وتَكْرَهُ بَنَّةَ
الأرآمُ منه الغَنَم الذئابُ

أراد أنه "وعيد يلهي الذئاب عن رائحة الغنم ومرابضها وأبعارها"[11]، وعن سيبويه أن البنة اسم للرائحة الطيبة[12]، ولدى ابن دريد أنها الرائحة الطيبة، وتقال خاصة لرائحة مربض الغنم[13] وفي الأساس "شممت منه بنة طيبة، وأجد في هذا الثوب بنةَ تفاحٍ أو سَفَرْجلٍ، وأجد بنةَ الغزْلِ منك أي أنت حائك، وفيها بنة مرابض الغنم[14].

ولهذا فلا اعتبار بما خالف صاحب التنبيهات أبا عبيد، لأنّ هذا الأخير لم يجزم قطعا بأنها طيبة، وإنما ذكر فيها المعنيين المتضادين، والإمام علي أطلق لفظ البنة حسب مقام المقال، ويؤيد قول أبي عبيد ما ذكره أبو حاتم السجستاني في أضداده بقوله: "البنة الرائحة الكريهة، وقالوا: الطيبة، ومن ذلك، يقال: عَسَل طيب البنة"[15]. وأما في عاميتنا فهي تدل على النكهة الطيبة

بدون الاتيان بصفة، خلافا للمعنى المراد به البنة المنتنة فيؤتي بصفة تبينها، ولكنها كما يلاحظ من التفسيرات الفصيحة لها أنها فقدت أحد معنييها الدال على الرائحة الكريهة.

وقد يعجب الناظر لها كثيرا، لأنها كلمة غريبة حقا، ولم يعبر بها الناس إلا قليلا، ولذلك لم يكن أبو عبيد مخطئا إذا أوردها في غريبه، ولم يطرقها من مؤلّفي كتب الأضداد -فيما أعلم- غير أبي حاتم[16].

2) - التفل:

هذه اللّفظة الغريبة في الفصحى الشهيرة في العامية من الأضداد في كلام العرب الفصيح، ومعناها فيه: الطيب والخبيث[17]، وفي عاميتنا بقال غالبا: "تفل عليه" في الماضي أي صيغة الماضي (من باب نصر وضرب) إذا بصق (بالصاد أو الزاي أو السين) عليه، وهو اشتقاق سليم، وتعبير فصيح، وفيه الحديث في النساء: "ولَيَخْرُجْنَ تَفِلاَتٍ"[18] أي غير متعطّراتٍ، ومنه أتفلت الشمس رائحته،

وهذا الوجه الثالث يكاد يتضاهى مع المعنى الخبيث فيها، كقول امرئ القيس:

لطيفةِ طيِّ الكَشْحِ إذا انْفَتَلَتْ مُرْتَجّةً
غيرِ مُفَاضَةٍ غيرَ مِتْفَالِ[19]

من قولهم: امرأة متفال، إذا كانت لا تعهد نفسها بالعطور، والموصوفة في البيت ممدوحة لأنها تتعهد نفسها بالطيب، فنكهة فمها دائما طيبة، أو كما قال الأعشى[20]:

نِعْمَ الضجيعُ غداةَ لِلَذَّةِ المَرْءِ لاَ
الدَّجْنِ يَصْرَعُهَا جَافٍ ولاَ تَفِلُ

وما يتفل به الإنسان من فيه من بصاق يسمى تفالا على وزن بصاق أو بزاق أو بساق تماما[21]، كقول ابن مقبل[22]:

تَعَرَّضُ تَصْرِفُ وَيَقْذِفْنَ فَوْقَ
أَنْيَابُهَا اللِّحَاءِ التُّفَالاَ

ويلاحظ ما يدل على الطيب من هذه اللفظة قد زال زوالا تاما، وغدا لا مظهر له فيها، إلاّ المظهر الدال على الشيء الخبيث، وكما أن المشتقات: تَفِلَ وَيَتْفُل، وَمِتْفَال، غير موجودة فيها، رغم أنها جميعا تدل على الشيء المنتن أو ما يمت

إليه بصلة ما عدا اللفظتين: "تْفَلْ عْلِيهْ" (فعل ماض) وَ"تْفَالْ" وهو اسم لما يرمي به من بصاق من الفم.

والغريب أن ولد الثعلب مشتق من هذه الكلمة الدالة على الضدين، كقول امرئ القيس[23]:

له أيطُلاَ ظبيٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ
وساقا وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
نَعَامَةٍ

ورغم أن المراد من "تتفل" في هذا البيت هو الثعلب بعينه، إلا أن معناه الحقيقي الموضوع له هو ولد الثعلب، لأن الشاعر في موقف وصف عَدْوِ فرسه، فلذلك شبَّه تقريب فرسه في الجري بتقريب الثعلب، والتتفل ولد الثعلب، لكنه أراد الثعلب بعينه، بل إن الأنثى من الثعالب تسمى "التتفلة"، كما جاء في كلام شاعر مغمور[24]:

وَهَلْ عَلِمْتِ يَا قُفَيَّ التَّتْفُلَهْ

وفي هذه الاشتقاقات الدالة على صنف الثعالب ارتباط لغوي بدلالة أحد

المعنيين الدال في ذات الكلمة على كل ذي رائحة خبيثة.

وهناك مراتب لغوية بين التفل وما يشاكهه، فجاء "التفلُ شبيه بالبزْقِ وهو أقل منه، أوّلُه البزْقُ ثم التَفْلُ ثم النَّفْثُ ثم النفْخ"[25]، أما ابن دريد فقال: "نفث الراقي ينفث نفثا، والنفث دون التفل، وهو شبيه بالنفخ، وما يكون معه ريق فهو تفل"[26]، وذكر ابن مكّي الصَّقَلّيّ (501هـ) أن متكلمي صقلية المسلوبة أمام ضربات الرومانيين المتتالية، يَغْلَطُونَ في هذا الحرف، فيجعلون التاء ثاء، ويضمّون المضارع من هذه المادة، فيقولون: ثفل إذا بصق، ويرى أن الصواب تفل بالتاء المثناة، ويتفل بالكسر في الفعل المضارع لا غير، لكن المراجع المعتدّ بها كالقاموس، والصحاح، والمصباح،... تبيح لنا أن نقول من هذه المادة: تفل يتفل تفلاً من بابيْ ضرب وقتل، وليس فقط من باب ضرب، كما قطع بذلك ابن مَكّي، ومما رُوِيَ بضم العين قول الشاعر:

مَتَى يَحْسُ منه مائحُ القومِ يَتْفُلِ

ومما هو شائع "بين خاصتنا وعامتنا أن الإنسان الّذي يفاجأ بشبح خيالي أو حيوان مفترس أو خبر غير سارّ أو بالعكس مفرح جدًا... فإنه لا يمتلك نفسه أن يتفل في صدره يسارًا، أي جهة قلبه، مرات ثلاثًا ولا يزال غير المطلعين منا على الحديث النبوي "الرؤية الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحبّ، فلا يحدث بها إلا من يحبّ وإذا ما رأى ما يكره فلْيَتْفُلْ عن يساره ثلاثًا، ولْيَتعَوَّذْ بالله من شر الشيطان وشرّها ولا يحدّث بها أحدًا، فإنها لن تضرّه" يعتقدون أن هذه الحركة الانفعالية ضرب من الوَهْم أو مما يدخل في التَّراريهِ"[27].

والمعروف في عاميتنا أنه يوجد فيها المادتان: البزق والتفل فقط مع عدم التفريق بينهما، وإنما هما فيها شيئان لشيء واحد، وأما النفث فلا وجود له فيها، إلا أن النفخ كائن فيها، ولكنه يعني ما وضع له في الفصحى، فهو إما أن يدل على الصوت، فيقال: انفخ عليه أي صُتْ. كما يقال في الفصحى: نفخ في الصور، ونفخ في النار، ونفخ النار بالمنفاخ، وهو الكير وإما أن يدل على انتفاخ البطن من طعام مثلا، كقولهم: أجد نفخة

(بفتح النون وضمها وكسرها) إذا انتفخ بطنه[28].

3) - الترعة أم التلعة؟:

ثمة فرق لغوي بين اللفظتين، والّذي شاع في عاميتنا أنه يستعمل فيها الترعة دون التلعة، إذ الترعة (بضم التاء) هي الباب، كما ورد في الحديث "إن مِنْبَرِي هذا على تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الجَنةِ"[29]، ويقال: التُّرعة الروضة، ويقال: الدرجة، وتطلق النزعة أيضًا على أفواه الجداول[30]، ويقال: سد الترعة "وهي مَفْتَحُ الماء إلى الحوض أو إلى الأرض أو إلى الجدول من النهر"[31]، وفي كلامهم: "حجبني التراع" أي البواب، حتى قالوا: جاء القَرَّاع فردّه التَّرَّاعُ، وفي هذا المعنى قال الشاعر[32]:

يُخَيّرني تَرَّاعُهُ أَزُومٍ إِذا عَضَّتْ
بين حَلْقَةٍ وَكَبْلِ مُضَبَّبِ

وفي بعض المصادر اللغوية أن الترعة شجرة[33] صغيرة تنبت مع البقل وتيبس معه وهي أحب الشجر إلى الحمير.

وجعلها الجواليقي ضمن الألفاظ الدخيلة، وزعم أنها سريانية[34] وجعلها أيضا بعض الباحثين العرب المعاصرين ضمن الألفاظ الآرامية الدخيلة في العربية، وحسب الشرح الّذي أورده لها بالآرامية (أو السريانية) بأنها "قناة عميقة"[35] من جهة، وحسب الشرح المستفيض لها في المعاجم العربية من جهة أخرى والتي لم تذكر بأنها قناة عميقة، يستبعد كونها آرامية وحتى إذا كانت كذلك فلم تعد دخيلة؟ أليست العربية هي لغة بدو الآراميّين، وهم العرب أنفسهم، -على كثير من النظريات-؟[36].

وأما في العامية فيقال: باب الترعة (بفتح التاء) وهي -على ما يبدو- زريبة مسيجة تصان فيها المواشي أو خلايا النحل، وهذا ما نعرف في محيطنا اللغوي الّذي نشأنا عليه في القرية، إذ الترعة عبارة عن مساحة صغيرة محاطة غالبًا بما يعرف بالهنديَّة، بحيث يغرس داخلها أحواض من البقول، وشجيرات مثمرة،...

وأما التلعة فهي مجاري الماء من أعالي الوادي أو ما انهبط منها، وهي من الأضداد[37]، وقال ثعلب في شرحه على ديوان زهير: "ويقال لمجرى الماء إلى الوادي إذا كان صغيرا شُعْبةٌ ثم تَلْعَةٌ ثم مَيْثَاءُ"[38] وقال زهير مستخدما التلعة بمعنى مجرى الماء الهابط من الجبل إلى الأرض[39]:

وأنَّى مَتَى أَهْبِطْ من الأرضِ تَلْعَةً أَجِدْ أَثَرًا قَبْلي جَدِيدًا وَعَافِيَا

وتطلق التلاع على الأراضي المعشبة، فيقال نزلنا بتلعة كذا، كما يعبر بها عما اتسع من فوهة الوادي، وكذا القطعة المرتفعة من الأرض[40].

ويبدو أن لفظ الترعة (بفتح التاء بدل ضمها) الفاشي في عاميتنا إنما أصله التلعة كما هو الشأن في الفصحى لأسباب:

1- أن هذا اللّفظ (الترعة) لا يؤدّي مدلوله الدقيق المعروف في الفصحى، إذ أين الباب أو الفرجة أو الروضة أو البواب أو الشجرة أو حتى القناة العميقة،...[41] مما تعنيه في العامية،

وهي الزريبة ليس غير، حتى وإن كانت الزريبة تطلق على قُتْرة الصائد التي يَنْزَرِب فيها، أو على حظيرة الغنم، أو الموضع الّذي يَكْتَنُّ فيه السَّبُعُ، لكن عامّيتنا يُفَرَّق فيها بين الزَّرْب الّذي يُسَيَّحُ به عادة الحظيرة، والزريبة التي يُعنى بها ما هو داخل الزرب، وإذًا فالزريبة لا تحاط بنبات طبيعي، بل بأكداس شائكة من العيدان والخشب ونحوهما، بينما الترعة عادة ما تكون محاطة بنبات طبيعي مشوك ومتداخل يستحيل عليك المرور وسطه دون اجتثاثه.

2- المعروف صوتيا أن الراء واللاّم من الجنس الثاني من الحروف المذلقة الخارجة بين أسلة اللسان إلى مقدم الغار الأعلى، وهما صوتان ممتزجان بغنة صادرة من الخيشوم.

3- مجرى اللام قريب من حافة اللّسان من الشق الأيمن، ومجرى الراء أدخل بطرف اللّسان في الفم، أي أن الراء تغلب في النطق على اللام، فيسهل على المستعرب أن يبدل اللام راء من غير قصد، بينما العكس أصعب عليه.

4- اللام والراء كلاهما حرف مجهور، وهما ليسا بالشديدين ولا بالرخوين أي متوسطين.

5- من آثار اللهجات العربية الفصيحة نفسها القلب والإبدال، فكان "من سنن العرب إبدال الحروف، وإقامة بعضها مقام بعض"[42]، وثبت تكافؤ في الإبدال بين اللام والراء[43]، وفي الأمالي[44] ألفاظ كثيرة بها على تعاقب اللام الراء، كما قالوا مثلا: نثرة ونثلة فهنا الراء بدلا من اللام[45] ويرون أن اسم جلبانة من الجلبة والصياح، كما ورد في بيت حميد بن ثور الهلالي[46]:

جُلُبَّانَة وَرْهَاءُ بِفِي مَنْ بَغَى خَيْرًا
تَخْصِي حمارها إليها الجَلاَمِدُ

وهي ليست جربانة لأن هذه الأخيرة من تجريب الأمور والصرف فيها، والمتتبع لما بعد هذه الكلمة (جلبانة) في قصيدة حميد يتأكد له ما ذهب إليه ابن جني، ولكن ابن جني (392هـ) -كما تعلم- مُغَالٍ في الأخذ بالقياس مع وجود السماع المعترف باحتجابه والموثوق بصحته، فهو مثلا يرى

أن ادغام الراء فيما والاها من لا مات مدفوع عنده وغير معروف عند أصحابه، وإنما هو شيء رواه القُرَّاء ولا قوة له في القياس، وتبعا لمذهبه فهو لا يقبل قراءة أبي عمرو بن العلاء (154هـ) في قوله تعالى: (يَغْفِر لَّكُمْ) على أنه أدغم الراء في اللام[47].

والحق أن الإدغام من مذاهب العرب في لهجاتها الفصيحة ويقابله الإظهار، وأصحاب كل لهجة معروفون[48]، ولا أحد يستطيع أن يطعن في قراءة أبي عمرو بن العلاء الّذي كان يُدْغِمُ في الحروف المتحركة المتماثلة لفظا والمتقاربة مخرجًا[49]، وهو كان يدغم الراء في اللام واللام في الراء في مواضع من القرآن[50] ثم إنا نعلم أن ما ينطقه بعض الحجازيين لاما يلْفِظُه بعض التميميين راء، فإذا قال الأولون: "لعمري" قال الآخرون: "رَعَمْلِي"[51]، وعلى هذا فإن بعض التميميين ربما كان يقول: "الترعة" في "التلعة"، وقد يُعْتَرَضُ على هذا الاستنتاج، لأن بعض الشيء لا يقوم مقام الكل ولا يمثله، ولأن هناك أفصح وفصيحا، وهذا الاعتراض غير

مدفوع، ولكنا ننظر هنا للهجة كمظهر لغوي حتى وإن لم يكن سائدا بين الجماعة أو معمولا به في اللغة الأدبية.

ثم إنا نجد التاء مفتوحة في كلتا الكلمتين، التلعة (في الفصحى) والترعة (في العامية)، لأن تاء الترعة في الفصحى مضمومة ولا يجوز فيها الفتح، لأنا لا نعرف جزائريا يقول "الخبزة" بفتح الخاء، أو "الحفنة" بضم الحاء إلا من لم يدر كيف هي في لغة بلده، وهما نطقان فصيحان، بل لا يوجد نطق سواهما في العربية الفصيحة، إذ يقال: الخُبزة (الطُّلمة)، والحَفْنة،...

4) - حَايْ حَايْ:

هذه اللفظة المستعملة بمعنيين في فصحانا ترد على أفواه النساء أزيد من ورودها على ألسنة الرجال في عاميتنا، ولكنها قلما تجيء على هذا النحو (حَاحَيْ)، وأكثر ما تكون "حَايْ" أو "حَاهْ" بسكون الياء في الأولى وإمالة قوية في الحاء، وهي تنبئ في العامية عن عدم الرضى على أمر أو فعل ما، وهو تارة يكون عذلا خفيفا لطيفا مقبولا، ومرة يكون

تعنيفا وتوبيخا من لدن المرأة، ولاسيما إذا أدخلت على اللفظة ياء النداء مضيفة "عْلَيَّ" الدالة على الشر أو على الاختلال النفسي بقولها: "يا حايْ عْلَيَّ"مع تشديد الحاء واختلاس الألف الطويلة فيها، وقد تلقى يدها اليمنى على اليسرى في هذه الحالة النفسية المثيرة أو حتى الهادئة.

وأما في فصحانا ففيها وجهان: يقال: حاحيت بالغتم: زجرتها، أو حَاحَيْتُ بها، دعوتها [52].

وقد يقال في الفصحى: هَأْهَأَ وحَأْحَأَ بغنمه هَيْهَاء وحَيْحَاء إذا دعاها، وكذا عَأْعَأَبها وهذا كله من الإبدال، فالحروف الثلاثة تتعاقب فيما بينها، ولاسيما الحاء والهاء اللتان تتجانسان مخرجا وهمسا وتوسطا بين الشدة والرخاوة.

وكانت العرب قديما تتكلم بهذا، ولا تعني بها إلا لغة واحدة لتقارب مخارج الأصوات فقالوا: "أردت أن تَذِيمَه فَمَدَهْتَهُ" [53]؛ أي مدحته، فقلب الحاء هاء للأسباب التي بينا وذكر المبرد (285هـ)

أن بني سعد بن زيد مناة بن تميم كذلك تقول، وكذا لخما ومن قاربها[54]، وذكر أيضا أن العرب قالت: جَلَحَ الرجل يَجلَحُ جَلَحًا، وجَلِهَ يَجْلَهُ جَلَهًا، والمعنى واحد[55]، وفي الأمالي -مثلا- أمثلات من كلام العرب عديدة من هذا النحو[56].

وأما تبديل الهمزة عينا فهذا شائع في لغة بني تميم، سواء أكان ذلك في "(أن) ونحوها" كبيت ذي الرمة[57]:

أَعَنْ تَوَسَّمْتَ مِنْ ماءُ الصَّبَابَةِ مِن
خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً عَيْنَيْكَ مَسْجُومُ

وهو يريد "أن" أم في الأسماء[58]:

فَنَحْنُ مَنَعْنَا يَوْمَ غَدَاةَ دَعَانا عَامِرٌ
حَرْسٍ نساءكم غَيْرَ مُعْتَلِي

وهو يريد "مؤتلي"، أم في الحروف العاملة...[59]:

أَرِينِي جَوَادًا أَرَى مَا تَرَيْنَ، أَوْ
ماتَ هُزْلاً لأَنَّنِي بَخِيلاً مُخَلَّدَا

وهو لا يريد إلا "لعلني" وأما تبديل الصائت همزة فهذه ظاهرة لهجية فصيحة متفشية في بعض الآثار العربية والقراءات القرآنية[60]، وممّا جاء[61]:

لَعَمْرُ أبيكَ الوُرْقُ عليْكَ وَحَيْحَاءُ بِهَا أَهْوَنُ شَوْكَةً ونعيق

وقد تروى "حيحاء" في هذا البيت "عيعاء"[62].

وورد بناؤها الصوتي ثلاثيا مكررا غير منون: "حاء حاي" (بالهمز في الأولى، والياء في الثانية)، وكذا جاء بتنوين الأولى منهما فقط، وبتنوينهما معا مع كتابة الثانية بالهمزة أيضا، وتقال في زجر الغنم وطردها، ومعنى الكلمة العام يدل على الصوت، إذ يقال كذلك "خَايِ بِكَ" أي اعْجَلْ بالخاء المعجمية، ونشير إلى أن "خَايِ" كلمَةُ عَجَلَةٍ، وهي صوت[63] كقول الكميت:

بِخَايِ بِكَ اعْجَلْ يَهْتِفُونَ وحَيْهَلْ[64]

وليس بعيدا أن تكون "خاي" بالخاء المعجمة هي عينها "حاي" بالحاء

المهملة، لأن كلا الحرفين صوت مهموس متوسط حلقي، ولأنَّ ثَمَّ كَلِمَاتٍ وردت بالحاء المهملة والخاء المعجمة[65] وإن كان ابن جني يرفض أن يكون الحاء بدلا من الخاء أو الخاء بدلا من الحاء[66].

والطريف في هذا الباب أن أحد تقليباتها الصوتي، وهو "الوحي" بالياء أو الألف المقصورة يدل أبدا على الصوت، ولا يكاد يخرج عن هذا المعنى العام، وأقول أحد تقليباتها الصوتي باعتبار الهمزة في "حاء" واوا، لأن الهمزة قد تقلب واوا في كلام العرب، كقولهم: وشاح وإشاح، ووسادة وإسادة، وقال أبوزيد: قيس تقول: ذأى العود يذأى ذأيا، وتميم تقول: ذَوَى العود... وقال غير أبي زيد: ذأى علوية (لغة عالية نجد)، وذوَى تميمية[67].

ودليلي على أن مقلوب "حاء" وهو الوحي يدل على الصوت قول حميد بن ثور

كأنَّ وَحَى الصِّرْدَانِ تَلَهْجُمُ لَحْيَيْهِ إذا
في كلِّ ضَالَةٍ ما تَلَهْجَمَا

الهلالي[68]:

واصطنع الشاعر نفسه مرة أخرى "الوحى"، ولكنها تدل في هذه المرة على شدة إسراع ناقته المروعة من كل حركة فوقها أو تحتها[69]:

مُرَوَّعَةً تَسْتَحِيلُ الشُّخُومَ من الخوفِ تَسْمَع مَا لاَ تَرَى

لها مَلْمَعَانِ إذا أَوْغَفَا يَحُثَّانِ جُؤْجُؤَهَا بِالوَحَى

بل قديراد بها الصوت الشديد[70]، والوَحَى من النار والشمس: اللهب[71]، وأما الوَحْيُ على وزن القطع فقد يراد به نقش الكتاب، وهذا أشهر من أن يمثل له، ومنه الواحي، أي الكاتب وأما الوَحِيّ (على وزن صبي)، فيعطى مدلولا أقوى من حَاحَى أو حَاءِ أو حَايِ، لأنه يدل على الكتابة في الحجارة كقول لبيد[72]:

فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ عُرِّيَ رَسْمُهَا الْوَحِيَّ سِلاَمُهَا

وقد يدل الوحَى (على وزن الونى) أيضا على السيد أو الملك[73]... وهذه تعابير مجازية لأن صوت كل من الملك أو السيد مسموع كما يسمع صوت النقش في الحجارة أو أشد من ذلك بكثير.

وأرى -إن كنت مهتديا- أن معنى "حاي" وشبهها في العامية الجزائرية هي عينها في الفصحى الأم، إلا أنها قد فقدت أحد معنييها الدال على دعوة المصوت له، مجتزئة بالدال منهما على الزجر أو العقاب أو الغضب... كما احتفظت بثلاثة أصوات، وبتسهيل آخرها تخفيفا على لهجة الحجاز الفصيحة.

ومما يثبت صلتها بالفصحى الأم، ويزيل أي وهْم من هذه العروة الوثقى أنها تشاركها في مستواها الصرفي، إذ هي تصرف بدون تغيير فيها، ولكن بتغيير ما بعدها حسب من هي مسندة إليه، وتظل بحال واحد في المذكر والمؤنث والجمع، فيقال: "حاي عليه" و"حاي عليهم" و"حاي عليها" و"حاي عليك"... وهذا عين ما تصرف به لهجة "خاي بك" فيقال: "خايِ بِكَ اعْجَلْ، وخايِ

بِكُما اعْجَلاَ، وخايٍ بكُم اعْجَلُوا، وخايٍ بكنَّ اعْجَلْن، في المذكر والمؤنث والجمع والتثنية بحال واحد، وتقدم خاي على اعجل"[74]، وكذلك في العامية الجزائرية، تقدم "حاي" على "عليك".

5) - **الزبية:**

تعني هذه الكلمة في العامية الجزائرية المكان المهيأ على سطح الأرض لإلقاء أو رمي غبار وبعر المواشي فيه ثم حمله بعد مدة في الخِرَجَةِ (ج.خُرْج، وعاء يُنْسج عادة من الحلفاء (واحدتها حَلْفَاة)) وتشتيته على وجه الأرض لتسميدها قبل بذرها وحرثها، وأي أرض سمِّدت به إلا وكانت محاصيلها وغِلاَلُها أعظم، وطعم بقولها أشهى وألذّ، وغالبًا ما يجمع من زِبْل الدوابّ، وبعر المواشي، ويُضنُّ بزِبْل الأبقار الّذي كان يُعجن خلطًا بالتّبن على شكل خبيزات دائرية، ثم يضرب على الجدران المعرّضة للشمس، ومتى يَبِسَ يُنْزع ليُستغلّ شتاءً وَقُودًا، ورغم أن زَبَلَ الرجلُ الأرض زُبُولاً وزَبْلاً إذا أصلحها بالزِّبْلِ حتى تجود للزراعة والغرس، فإننا نفرّق عادة بين الزّبل المُلتقى به حديثا في

المزابل، والغبار الملقى به حديثًا في المزابل، والغبار الملقى به قديمًا وحديثًا في الزُّبية.

وقال أبو عبيدة: "الزبية حفرة للأسد"[75]، وفي الأساس[76]: "زبى زبية وزباها: اتخذها، وهي حفرة يصاد فيها السبع" كما يقال: وكأن يديه الزابيان، والزابيان نهران في سافلة الفرات، حتى قيل لهما ولما حولهما الزوابي[77]، وكذلك هي أماكن مرتفعة، وجمعها زبى على وزن ربى، إذ كتب عثمان بن عفان إلى علي رضي الله عنهما: "أما بعد، فإنه قد جاوز الماء الزبى، وبلغَ الحزامُ الطُّبْيَيْنِ وتجاوَز الأمر بي قَدْرَه، وطَمع فِيَّ من لا يدفع عن نَفْسه[78]:

فإن كنْتُ مأكُولاً وإلاَّ فَأَدْرِكْنِي، فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ ولَمَّا أُمَزَّقِ

وهي هنا جمع زبية (على وزن خبزة)، وهي مَصِيدَة الأسد، وهذا كقول العجاج[79]:

فقد عَلاَ المَاءُ الزُّبَى فَلاَ غِيَرْ

أو كقول الطرماح[80]:

يَا طَيِّءَ السَّهْلِ كمُبْتَغِي الصيدِ أَعْلَى والأجْبَالِ مُوعِدُكُمْ زُبْيَةِ الأَسَدِ

حتى قالوا في مثلهم: "قد علا الماء الزبى".

وإذا أدركنا أنّ مِصْيَدَةَ الأسد لا تتخذ إلا في قلة أو زابية أو هضبة[81]، نكون قد أدركنا أن المتعربين في الجزائر قد يكونون شبهوا الزبية، وهي المكان المرتفع من الغبار عندهم، بأحد هذه المرتفعات الثلاثة، ولعل ما يقوي هذا التصور قول ثعلب بأن واحد "الزبى زبية، وهي ما ارتفع من الأرض يحفر فيه للسبع"[82].

ولابد من الإيماء إلى أن علي بن حمزة قد اعترض على ابن ولاد حين قال: "وزبى جمع زبية، وهي أماكن تحفر للأسد"[83]، مستشهدا بقول أحد الرجاز، وبشطر العجاج السابق، بقوله: "وقد وهم -أي ابن ولاد- في هذا القول، وإنما تحفر الزبى للأسد في الأماكن العالية"[84] ولكن كلام ابن ولاد هو نفسه كلام الأصمعي وأبي حاتم وابن

السكيت وأقره الصغاني في ذيله[85]، ثم ان ابن ولاد لم ينف كون الحفائر تحفر في أماكن مرتفعة، ونحن لو تَبنَّيْنَا ما اعترض عليه علي بن حمزة (375هـ) لجمّدنا غير قليل من الأساليب العربية ومستوياتها التي أقرّها من تقدَّمه، وسمعها من شفاه العرب الأصلاء.

ولعلنا نكون قد انتبهنا مرة أخرى إلى أن هذه الكلمة (الزبية) في لهجتنا العامية قد فقدت أحد المعنيين مجتزئة بما دل منها على كل ما علا وارتفع، مهملة ما يدل على الفصحى على كل حفرة تحفر في الأرض، ثم إنها لم تحرف في نطقها، ولا في أصواتها، وهي من الكلمات الفصيحة الغامضة أو الغريبة في الفصحى، لأنها لا تكاد توجد إلا عند قلة قليلة من الشعراء المحتج بهم، وكنا إلى عهد قريب نحسبها عامية خالصة ونخشى أن نعبر بها عما ارتفع وعلا من الأرض على الأقل.

6) - نصل:

يقال في الفصحى: نصل السهم: إذا خرج نصله، ونصل السهم أيضا إذا ثبت نصله في

الشيء فلم يخرج، وبابهما (دخل) وكلاهما ضد الآخر، ونصل أونَصَّلَ (بتعدية الفعل بالهمز أو التضعيف) السهم تنصيلا وإنصالا: إذا نزع نصله وركب عليه النصل، والضد كامن فقط في هذا التعبير الخاص بالنصل والرمح والسهم، ونحوها، لأنا نقول: نصل الشعر: إذا زال منه الخضاب، وقال الشاعر[86]:

وخَاضِبَةٍ سَيَنْصُلُ قَبْلَ أَوْبَتِنَا
لأَوْبَتِنَا يَدَيْهَا الخِضَابُ

أما في العامية الجزائرية، فيقال: نصل (بالتضعيف) الشيء: إذا نزعه، كأن يقال بصيغة الأمر نَصَّل (فعل أمر العامية) البابْ، أي اقْلَعْها أو أَنْزِعْهَا/ ومنه: نصَّل المسمار من اللَّوح، ونصَّل المدية أو الشفرة من مقبضها،... وهلم جرا، ولا تقال بصيغة تعدية الفعل بالهمز كما هو الحال في الفصحى، كما تستعمل في جميع الصيغ الثلاث: ماضيا ومضارعا وأمرا، نفيا وإثباتا.

وهي كسائر مثيلاتها من ألفاظ عامية جزائرية لا تدل إلا على إحدى الدلالتين وعوضت الدلالة الثانية فيها بضدها من غير جنسها أي بالفعل "ركب الشيء" ونحوه.

7) - المجمر:

هذه الكلمة على وزن مبرد في الفصحى، وعلى وزن مكتب في العامية وهو ما يوضع فيه الفحم أو الدُّخْنَةُ (بَخُور)، ولم يبق في عاميتنا إلا هذا المعنى، وأما الضد وهو العود الّذي يدخن به فلا يعرف فيها بهذا المعنى.

هذا إلى جانب فئات لغوية ضخمة من الأضداد الباقية في الفصحى، والموجودة أيضا بإحدى الدلالتين في العامية الجزائرية، إذ كل ما وقفت عليه من ألفاظ كثيرة في هذا الباب ألفيته قد تنافر مع ضده.

وأكثر من هذا أن هذه الألفاظ على كثرتها -على ما يبدو جعلت تحتفظ بعامل الشيوع البسيط الأكثر شهرة وورودا وتناولا في الفصحى، إذ كل الألفاظ ذات

الأضداد في ذاتها لم يكن من اليسر على غير العرب الأقحاح، والّذين ألفوها وتواضعوا عليها، أن يدركوها إلا بالتعلم الطويل والسماع الدؤوب من العرب أنفسهم، ولذلك فإن الألفاظ الأضداد من المعاني الغريبة التي لا يلم بها إلا الفصحاء الناظمون ونحوهم والّذين يهتمون برواية أو صنعة أشعار القبائل ذات اللهجات الفصيحة.

لننظر إلى هذه الألفاظ الأضداد كيف أنها عرفت في العامية بمعنى واحد، فقال أبو زيد (215هـ) وأبو عبيدة: بعت الشيء: إذا بعته من غيرك، وبعته: إذا اشتريته، كقول طرفة بن العبد[87]:

سَيأتيك بِالأَخبَار بَتَاتًا، وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ

فإن الفعل "تبيع" بمعنى "تشتري" في البيت، وكذا الفعل الضد نفسه (شرى)، وقد يستعمل في موضع باع، من ذلك قول المُسيّب[88]:

يُعْطَى بِهَا ويَقُول صَاحِبُهُ: ألا

ثمنًا فَيَمْنَعُهَا تشري؟

أي ألا تبيع؟

وقال أبو ذؤيب أيضا في معنى اشتريت[89]:

فَإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ فَإِنِّي شَرَيْتُ الحِلْمَ أَجْهَلُ فيكمُ بَعْدَكِ بالجهْلِ

وهذا تفسير أبي حاتم وابن إسحاق السكيت[90]، وأما تفسير البيت في ديوان الهذليين فهو بمعنى "بعت"، حيث قال المفسر: "وقوله: شريت الحلم أي بعت الجهل بالحلم"، وقال أبو ذؤيب[91]:

وَمُدَّعَسٍ فيه الأنيضُ بِجَرْدَاءَ يَنْتَابُ اخْتَفَيْتُهُ الثَّمِيل حِمَارُهَا

فالاختفاء في البيت هذا يعني الاستخراج، حتى قالوا: لِلرَكِيَّة التي قد انْدَفَنَتْ ثم اسْتُخْرِجَتْ: خَفِيَّةٌ، وقد تعني المادة (خفي) معنى استخرج أيضا، وكذلك الكلمة (أخفى) الشيء: إذا كتمه وأخفاه: إذا أظهره، كقوله جلّ جلاله: (إِنَّ السَّاعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)، ويُقرأ: "أَخْفِيهَا" أي أزِيلُ عنها خِفَاءَهَا، أي غِطَاءَها"[92].

وهذه الكلمات كغيرها من الأضداد التي وقفت عليها كلها قد فقدت إحدى الدلالتين.

وهل كان بوسع غير العربي صليبة أو المتعرب المتمكن من قيادة لهجات العرب الفصحى أن يعلم أسرار كل هذه الألفاظ الكثيرة في العربية، أن المتعرب العادي لا يمكن له أن يعرف من قوله تعالى: (إِنَّ السَّاعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) غير كتم الشيء، ومع أن المفسرين قد أجمعوا على أن "أُخْفِي" في الآيَة يعني الإظهار، وكقول امرئ القيس[93]:

فإِنْ تَدْفِنُوا الدَاءَ لاَ نَخْفِهِ وإِن تَبْعَثُوا الحَرْبَ لاَ نَقْعُدِ

وحتى في قراءة من قرأ (أَخفيها) بفتح الهمزة في الفعل، فإن فتح الألف معروف في معنى أظهرها، ومن ذلك قول امرئ القيس أيضًا يذكر فرسا جرى جريا أخرج الحشرات من أنفاقها[94]:

خَفَا هُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَا هُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

وكذا فإن المتعرب العادي منا لا يفهم من معنى قوله تعالى: (من الناس من يشري نفسه) غير الشراء المتعارف عليه، مع أن الفعل "يشري" بمعنى يبيع في هذه الآية،...

وهذا، وإن كان قليلا في العربية، فإنه مع قلته قد يقلب المراد من الكلام كأن يصبح الحق باطلا، والباطل حقا،... ولعلّ هذا ما حفز بعض اللغويين العرب الغيورين على الضاد وآثارها، ليؤلفوا في المقلوب لفظه في كلام العرب، والمزَال عن جهته، ولاسيما ما ورد من الفاظ من هذا القبيل في القرآن الكريم "إذ كان يجيء في القرآن الظن يقينا وشكا، والرجاء خوفا وطمعا، وهو مشهور في كلام العرب"[95]، وإذا كان هذا مشهورا في كلام العرب القدماء من أَعْراب وجُمَّاع للغة وشعراء فطاحل وخطباء مصاقع،... فهل بقي على شهرته في كلام العرب التالين من فاتحين ومفتوحين؟ للبت في هذا الجواب لابد من اقتفاء الحركات اللغوية التعبيرية في الأمصار العربية مَرْحَلَة مرحلةً لدى الشعراء والأدباء.

ورغم أنَّا لم نطلع إلا قليلا على هذه الآثار الأدبية التالية في المشرق والمغرب، فإن القليل الّذي عرفناه -وإن كان القليل لا ينبغي أن يكون حجة على الكثير- قد خلا إلا نادرا جدا، من مثل هذه الاضداد.

وقد يرجع ذلك -مما يرجع إليه- إلى اختلاط العرب المعربين (بكسر الراء) بالاجناس غير العربية التي كان يشق عليها أن تزيل الابهام من معنيين في كلمة واحدة، فالفعل باع مثلا، إما أن يدل على البيع فقط أو على الشراء فقط، أمَا أن يدل عليهما معا وكذا شرى... فهذا مما كان يشتبه عليهم اشتباها، ولذا فقد يكونون لقَّنوهم دلالة من كل كلمة دالة على دلالتين، ولا حرج ولا تقصير في هذا التلقين المتقن المحكم المأمون ما دام لكل دلالة كلمة تدل عليها بأصواتها المختلفة عن الأخرى، وبعد ذلك أدركوا ضد كل كلمة من غير جنس أصواتها حسب كل معنى مقابل له، وهو أمر سهل، ويتبع إلى يومنا في المناهج التربوية

الحديثة، فجعلوا مقابل: برد (بتضعيف الراء) أسخن، خلافا للعربي الأول الّذي كان يعرف من برد: إذا برد وإذا أسخن.

غير أن التلقين المشار إليه أعلاه، تَمَّ بكيفية صوتية سماعية آليًا، وبآليّة كلاسيكية طبيعية لا قواعد لغوية اصطناعية، لأنّ تأسيس الأنظمة اللسانية العربية استند أوّل ما استند على كلام القوم، ثم ما لبثت الآية أن انعكست، بعد فساد الكلام العربي، ليتأسس كلامنا على تلك الأنظمة اللسانية، ومن ثمّ أصبح صعبا على اللاّحقين أن يجاروا العرب السليقيين في كلامهم ولا المتعرّبين المتقدّمين في لغتهم، الأمر الذي أفرز أداءات كلامية مضطربة، ومستويات لغوية متباينة في هذه القرية أو المدينة، لتتحوّل إلى هذه العاميات العربية التي لاَ يعرف عَدَدَهَا أَحَدٌ من الدارسين على مستوى بلده الأصلي حتى لا أقول على مستوى الأقطار العربية.

هوامش البحث:

1)- الفوارق النحوية بين لهجات القبائل العربية: 159.
2)- الكامل: 229/3 (وفيه أن هؤلاء الشعراء الثلاثة قد استعملوا "ذو" الطائية بمعنى "الّذي"، وهي لهجة سائدة في طيء.
3)- الكامل: 249/1.
4)- الكامل: 255/1.
5)- هو عبد الله بن محمد بن هارون (233هـ).
6)- أبو جعفر المنصور (588-640هـ) تولى الخلافة ما بين (623-640هـ)، مما ينبّئنا بأن الصغاني قد قام بهذا الانجاز في هذه الفترة.
7)- الأضداد: 253.
8)- التنبيهات: 207.
9)- السابق: 207.
10)- جمهرة ابن دريد: 38/1. أي عيد يجعل الذئاب تلهو عن رائحة الغنم.
11)- التنبيهات: 207. لأن البنة تطلق على رائحة مرابض الغنم خاصة.
12)- السابق: 207 من هامش: 1.
13)- الجمهرة: 38/1.
14)- أساس البلاغة: 51.
15)- الأضداد: 136.
16)- وتبعه ابن الأنباري.

17)- الأضداد: 225.
18)- الجمهرة: 24/2، وهو في الأساس: 63: "فليخرجن..." بالفاء بدل الواو.
19)- ديوان امرئ القيس: 30.
20)- ديوان الأعشى: 145.
21)- في العامية الجزائرية يغلب صوت الزاي على صوتي الصاد والسين وهذا من قول العرب: الصقر، والزقر، والسقر، حتى قالوا في مثلهم السائر: "لَمْ يُحْرَم مَنْ فُزْدَ لَهُ" أي مَنْ فُصِدَ له، فأخلَصوا الصاد زايا، وقرأ خلف الصراط وصراط حيث وقعا بأشمام الصاد الزاي، وقرأها قنبل حيث وقعت الكلمتان بالسين، وروى الخليل عن قوم من العرب يقولون الساعقة بدل الصاعقة، وظهر أن الصراط بالصاد لغة قريش، وعامة العرب يجعلونها سينا، وأما الزاي فلغة لعذرة وكعب وبني القيس...(ينظر هذا في الفوارق النحوية بين لهجات القبائل العربية: 140).
22)- أساس البلاغة: 63.
23)- ديوانه: 21.
24)- انظر الأصمعيات: 126. والشاعر صحير بن عمير (لم يترجم له)، لكنه ورد في عدة مصادر لغوية وأدبية ومعجمية.
25)- تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى: 50-52.
26)- المرجع السابق: 50-52.

27)- أساس البلاغة: 646، والصحاح: 434/1.
28)- الصحاح: 1191/3، وفي المعرب: 140، يروى هكذا: "إن منبري على ترعة من ترع الجنة"، ويروى بغير هذا اللفظ وهذا الترتيب في مصادر أخرى دينية.
29)- السابق: 1191 والجمهرة: 10/2.
30)- أساس البلاغة: 62.
31)- السابق: 62 ووقارن بالصحاح: 1191/3.
32)- كتاب النبات والشجر للأصمعي: 36 (ضمن البلغة).
33)- المعرب: 140.
34)- غرائب اللغة العربية: 175.
35)- المقصود ببدو الآراميين -هنا- هم الأعراب البدو أي العرب أنفسهم الّذين ظلت لغتهم صافية نقية لبعدها عن التحضر والاختلاط اللّذَيْنِ يؤولان باللغة إلى الفساد.
36)- الأضداد: 20، 109، 225،...
37)- ديوان زهير: 57.
38)- السابق: 285.
39)- الجمهرة: 21/2.
40)- بفرض أنها أرامية.
41)- المزهر: 460/1.
42)- التسهيل: 317.
43)- الأمالي: 146/2.
44)- سر صناعة الإعراب: 206/1.
45)- ديوان حميد بن ثور الهلالي: 65.

46)- سر صناعة الإعراب: 206/1.
47)- السابق: نفس الصفحة.
48)- الفوارق النحوية بين لهجات القبائل العربية: 145-149.
49)- التيسير: 19.
50)- راجع هذه المواضع في التيسير: 27.
51)- المزهر: 277/2.
52)- الأضداد: 149.
53)- الكامل: 146/3.
54)- الكامل: 146/3.
55)- الكامل: 147/3.
56)- الكامل: 67/2 وما بعدها.
57)- سر صناعة الإعراب: 234/1.
58)- السابق: 240.
59)- السابق: 241.
60)- الفوارق النحوية: 137-139.
61)- الأضداد: 149.
62)- الجمهرة: 412/3.
63)- مجالس ثعلب: ق554/2.
64)- السابق: نفس الصفحة، دعاء منه عليه، أي الحَقْ بأمرك الّذي خاب وخسر!
65)- الأمالي: 111/2.
66)- سر: 199/1.
67)- التنبيهات: 177-178.
68)- ديوان حميد: 14.

69)- ديوان حميد: 47، وملمعان: جناحا الطائر، وأوغفا : أسرعا، وجؤجؤها: مقدّم صدرها.
70)- المسلسل في غريب لغة العرب: 95.
71)- المسلسل: 155.
72)- الجمهرة: 172/1، وذكر ابن دريد أن أصل الوَحِيّ الكتابة في الحجارة، ونقل عن أبي زيد أنّ وحَى وأَوْحَى بمعنًى، ولم يتكلم فيه الأصمعي لأنه في القرآن، وكان لا يتكلم في مثله، وحواءُ القوم: مُجْتَمَعُهُمْ، والجمع أَحْوِيَة، والحَوِيَّة مركب من مراكب النساء ليس بِحِدْجٍ ولا هَوْدَج شَبِيه بِالمِحَفَّةِ.
73)- المسلسل: 274.
74)- مجالس: ق554/2.
75)- الأضداد: 55.
76)- الأساس: 293/1.
77)- الأساس: 293/1.
78)- الكامل: 17/1.
79)- نفسه: 18.
80)- السابق: 18.
81)- السابق: 17، والجمهرة: 205/3.
82)- مجالس: ق288/1.
83)- التنبيهات: 337.
84)- السابق: 337.
85)- انظر الأضداد: 55، 87، 206، 231.
86)- الجمهرة: 87/3.

87)- المعلقات (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: 231).
88)- الأضداد: 107.
89)- ديوان الهذليين: 36.
90)- انظر الأضداد: 107، 185.
91)- الأضداد: 22، والبيت ليس موجودا في ديوان الهذليين الذي بين يدي رغم أن للشاعر قصيدة من نفس الوزن والقافية فيه.
92)- الصحاح: 2330/6.
93)- ديوانه: 186.
94)- ديوانه: 51، والمجلّب المطر التي تسمع له جلبة لشدة وقْعِه، ويُرْوَى "مُجلِّب".
95)- الأضداد: 72.

مكتبة البحث:

1- أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر (بيروت)، ط: 2004.

2- الاشتقاق، ابن دريد، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي (مصر)، ط: 1958.

3- الأصمعيات تح: قصيّ الحسين، مكتبة الهلال (بيروت)، ط: 1998.

4- تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، عبدالجليل مرتاض، دار الغرب (وهران)، ط: 2004/1.

5- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك، تح: محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي (مصر)، ط: 1967.

6- ثلاثة كتب في الأضداد، الأصمعي، السجستاني، ابن السكيت، دار الكتب العلمية (بيروت).

7- جمهرة اللغة، ابن دريد، مكتبة المثنى (بغداد).

8- ديوان الأعشى، دار بيروت للطباعة (بيروت)، ط: 1980.

9- ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (مصر)، ط: 1964/2.

10- ديوان حميد بن ثور الهلالي، تح: عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة وللنشر (مصر)، ط: 1951.

11- ديوان زهير بن أبي سلمى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (مصر)، ط: 1964.

12- ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة (مصر)، ط: 1965.

13- ذيل الأمالي والنوادر، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، دار الآفاق الجديدة (بيروت)، ط: 1980.

14- سر صناعة الإعراب، ابن جني، تح: لجنة من الأساتذة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي (مصر)، ط: 1954.

15- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تح: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط: 2، مصر.

16- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط: 1984/3.

17- غرائب اللغة العربية، الأب رفائيل نخلة اليسوعي، ط: 1960/2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

18- الكامل، المبرد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، السيد شحاتة، دار نهضة مصر.

19- الفوارق النحوية بين لهجات القبائل العربية، رسالة ماجستير، عبد الجليل مرتاض، جامعة الجزائر، 1982..

20- كتاب النّبات والشّجري للأصمعي ضمن البلاغة في شذور اللغة، المطبعة الكاثوليكية بيروت.

21- مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن غير ثعلب (291هـ)، تح: عبد السلام فجر هارون، دار المعارف (مصر)، ط: 1960/2.

22- المزهر: السيوطي، تح: مجموعة من العلماء، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة).

23- المسلسل في غريب لغة العرب، أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي (538هـ) تح: محمد عبد الجواد، إبراهيم الدسوقي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي (مصر).

24- المنقوص والممدود للفراء، والتنبيهات لعلي بن حمزة، تح: عبد العزيز الميمني، دار المعارف مصر.